جامعة محمد بوضياف

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

مقياس : فكر شرقي- قديم- السنة الثانية ليسانس السداسي الأول: 2021-2022

د: بوزبرة عبد السلام

المحاضرة الثالثة : الفكر المصري القديم

يرجع تاريخ الحضارة المصرية إلى نحو عام 3100 ق.م، حين شهدت مصر ميلاد إحدى أقدم الحضارات في تاريخ البشرية وكانت نشأتها على ضفاف نهر النيل، واستمرت لأكثر من ألفي عام. وهي تُعَدُّ بذلك من أطول الحضارات البشرية عمرًا وأكثرها امتدادًا عبر التاريخ. أطلق أهل مصر القديمة على بلادهم اسم كيميت، وتعني الأرض السوداء كناية عن وفرة الرواسب الطينية التي يرسبها النيل على جانبي مجراه وفي دلتاه خلال مواسم فيضانه، والتي أسهمت في خصوبة التربة وتجددها كل عام. وأضافت الحضارة المصرية القديمة الكثير إلى التراث الإنساني العالمي؛ فقد شهد وادي النيل إنشاء أول سلطة مركزية في التاريخ، بالإضافة إلى معرفة الكتابة والمساهمة في ابتكار عديد من العلوم منها الحساب والهندسة والطب والفلك، ومعرفة التقويم، والتفكير في البعث بعد الموت والثواب والعقاب. وهو ما دفع ملوكهم إلى بناء المعابد والمقابر المذهلة ومنها الأهرامات، إلى جانب معرفة طرق تحنيط جثث الموتى والتي مازالت أسرارها غير معروفة حتى الآن. ومرت على مصر مراحل تاريخية متباينة بعد ذلك، خضعت خلالها لحكم الإغريق والفرس والرومان حتى انبعث ميلاد جديد لمصر بدخول الإسلام ربوعها. تميزت الحضارة المصرية القديمة باستمرارها و طول أمدها وهي كما قال المؤرخ اليوناني هيرودوت "مصر هبة النيل" لأنها عبارة عن واحة صحراوية تحدها الرمال من جميع الجهات ويقطعها النيل من أقصاها إلى أقصاها. وهب حضارة تميزت بميراثها في مجال النحت والرسم واكتشاف اللغة الهيروغليفية وإقامة الدولة وتأسيس حملة من المذاهب والعقائد الفكرية و الدينية. وقد اجتهد المصري القديم في تكوين صورة واضحة عن الكون والطبيعة والحياة، ليتجاوز مصاعب العيش، التي سهل بعضها وجود النيل في وسط الصحراء باعتباره شريان للحياة في هذه الربوع. ويمكن الحديث عن جانبين في الفلسفة المصرية القديمة، أولها الجانب الميتافيزيقي أو الوجودي المتعلق أساسا بنشأة الكون وتدبيره وتدخل عنصر الآلهة فيه، وجانب النفس.

أولا: الوجود (عالم الميتافيزيقا والدين)

1: نشأة العالم : تعتبر القوى الطبيعية في المجتمع المصري القديم أجزاء من القوة الإلهية العظمى المنتشرة في الكون، وقبل خلق العالم كانت هذه القوى الإلهية لا زالت غير فاعلة، وعندما تجلت للمرة الأولى على هيئة انبثاق وضاء خلقت بطرق متنوعة السماء والأرض وجمع مظاهر الطبيعة التي نراها. والإنسان المصري الذي تحيط به مظاهر الطبيعة، ويتوقف عليها ذاته، قد تصور أن هذه المظاهر تسكنها القوى الآلهية، وعلى رأسها الأرض والسماء والأثير وفيضان النيل والشمس والقمر... لقد خلقت الآلهة العالم، ونظمت الكون، وكان المصري القديم يحاول أن يقدم تفسيرا لهذا الكون، فنظم جملة من القصائد والنثريات تتغنى بالآلهة وتشرح عملية الخلق. وانقسمت آراء المصريين حول خلق الآلهة والبشر والأشياء عدة مذاهب قدم كل منها تفسير معينا للكون، تمثلت هذه المذاهب: الأشمونيون، وهليوبولس، ومنف.

أ: فبالنسبة لفلسفة الأشمونيون لم يكن شيء في البداية سوى اللاوجود والفوضى، فالماء أو الإله الواحد القديم هو المبدأ الأول أو الأصل الأول، وقوام هذا الأصل أو الأزل جملة من الخصائص هي: العمق العظيم ثم اللانهاية ثم الظلام المخيم ثم اللارؤية.

ب: وأما معبود هيليوبوليس الإله "أتوم" فقد بدأ وجوده الذاتي من فوق قمة تل أزلي انبثق بدوره من المياه أو اللانظام الأزلي ثم نفخ الإله في يده وبزق في فمه الإله "شو"وقرنته "تفنوت" واللذين نسلا بولادة طبيعية بقية المعبودات الأخرى. ويقال عن "أتون" الكامل أو المطلق ثلاث صفات هي: الموجود بذاته، والأزلي أو الأقدم، والمتفرد بذاته.

ج: وفي نظرة توفيقية بين المذهبين السابقين، جاء تصور جديد قوامه وجود ثامن آلهة إحتواها الإله بتاح، " في الأصل تم الخلق من اللسان والقلب باعتباره صورة (أتوم) ولكن (بتاح) الأعظم حبا الآلهة وأرواحها الفعالة بالحياة بغيض من قلبه ولسانه"...

2: النفس ومسألة الخلود: إن مسألة النفس من القضايا التي كانت مثارا للبحث و الجدل منذ نشأة الفكر الإنساني، و لا توجد أمة أو حضارة من الحضارات، إلا و قد بحثت في أصل النفس و ماهيتها، و مصيرها، و تعشقها الفطري للبقاء و الخلود. تعتبر إشكالية النفس و الخلود مدخلا لدراسة مجمل مكنونات الفكر المصري القديم، بوصفها الرابط بين العالم الحسي و العالم الآخر، الذي يشغل تفكير الفراعنة ؛ لإيمانهم بمحاكمة الموتى و البعث و الخلود، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالنفس و آلية خلقها، و كيفية تعبير قدماء المصريين عنها، و معالجتهم لعلاقة النفس بالجسد، و تفسير مصير النفس بعد الموت و تأرجحه بين التناسخ أو الخلود، من خلال شبكة العلاقات التي تربط بين الآلهة و البشر و الكون. لقد ميّز المصريون

القدماء بين النفس و الجسد فقالوا عن النفس(ألكا) والجسد (ألبا). النفس في تقديرهم خالدة و الجسد يفنى و لذلك عملوا على إبقاء الجسد بواسطة تقنيتين وهما التحنيط وبناء الأهرامات وآمنوا بفكرة الخلود من خلال عودة الروح على الجسد مرة ثانيه على أن لا تعرف بالتدقيق إن كان المصريون القدماء يؤمنون بالخلود لكل الأفراد أم للفراعنة والمقربين منهم فقط. ذلك أن التحنيط و بناء المقابر يدل على أن هنالك فئة معينة فقط تستطيع أن تحافظ على أجسادها ربما من هنا يتغير موقف المصريين من فكرة الخلود و استبدلوها بفكرة الاستمتاع بالحياة و هو ما يؤكده نص "عازف القيثار" الذي يشير إلى تغيير موقف المصريين من الخلود مثلا " احتفل باليوم البهيج و تذكر لا يأخذ الإنسان ما يملك معه نعم لا يعود ثانية من رحل إلى هناك"

لقد آمن المِصرى القديم بعقيدة «البعث» والحياة بعد الموت، وبعودة الروح إلى الجسد. فقد رفض المِصرى القديم مَوت الروح، وصوَّرها فى نقوشه ورسومه بهيئة كائن له جسد طائر ورأس إنسان، وهذا الطائر ينتقل بين كلا العالمَين المادى الأرضى والآخر السمائى. إلا أن المِصرى القديم قد نادى بأن الروح لا بد لها من أن تتعرف جسدها الذى احتواها فى حياتها على الأرض لتتمكن من العودة إليه. ولهذا برع القدماء المِصريُّون فى التحنيط، الذى صار تعبيرا عمليا عن إيمانهم ببعث الروح، فبه تمكنوا من الحفاظ على جسد الإنسان دون تغيير لتتمكن الروح من العودة إليه وتجده محفوظا سليما، فيقوم الإنسان جسدا وروحا إلى عالم الخُلود. وكان التحنيط يدخل فى النظام الدينى المِصرى ويسمى «نظام الأسرار»، ولا يؤذن لأحد بالاطلاع عليه، إلا الكاهن الأكبر الذى يقوم باستدعاء اثنين من كبار الكهنة لمساعدته فى أعماله وطقوسه. لقد اعتقد المِصريِّين القدماء بالخُلود والقيامة، وبأنه يوجد حساب للإنسان على ما فعله فى الحياة من خير أو من شر، نادَوا بوجود إله للخير وآخر للشر، وبأن الإنسان فى حياته يصارع بين ما هو خير وما هو شر، وبأنه بعد الموت سيمثُل أمام المحكمة الإلهية لمحاسبته على أفعاله، فيوزن قلبه فى ميزان العدل والحكم.

تُعد الأهرام أحد أهم الآثار التى ماتزال شاهدة، حتى عصرنا الحالى، على اعتقاد قدمائنا المِصريِّين فى خُلود الروح، والبعث من جديد بعد الموت، وبأبدية الحياة الأخرى. وقد بنى الأهرام الملوك الفراعنة لتكون مقابر ملكيةً كلٌّ منها يحمل اسم الملك الذى بناه من أجل أن يُدفن فيه، فبنَوا القدماء الهرم كمقبرة حصينة يضعون فيها الجثمان بعد تحنيطه. وكانوا يمُدون الميِّت بمجموعة كاملة من حاجاته: الأدوات التى يستخدمها، وقطع الأثاث، مع الطعام والشراب الذى كان يتناولهما فى حياته! بل كانوا ينقشون جُدران المقبرة بالمناظر البَهِجة لتُدخل السرور على الميِّت حين يعود إلى الحياة!! وهكذا، يتهيأ الميِّت بحالة من الاستعداد حتى متى جاءت الروح تتعرف جسدها الذى كانت فيه، ويعود الإنسان إلى حياة الخلود سليمًا معافى، ليقف أمام المحكمة الإلهية ليجازَى على كل ما فعله فى أثناء حياته الأولى.

ثانيا: الأخلاق والعدالة عند المصريين:

1: الأخلاق: : إن ما تقدمه لنا نقوش مصر القديمة أقدم فصل في تطور الإنسان الخلقي "هذا التطور لحق بمفهوم "الماعت" ليشمل مجالات اجتماعية وسياسية يهمنا أن نستخلص تطور الدلالة الخلقية بالذات .لقد اقتصرت الدلالة الخلقية منذ نشأتها الأولى على المعنى الشخصي للأخلاق بوصفها أمرا شخصيا خاصا بالفرد، فكانت تدل على الخلق القويم في الاسرة أو في البيئة التي تحيط بالإنسان فكان هذا المبدئ الخلقي محصورا داخل الاسرة وأقاربه المقربين ثم اتسع هذا المجال إلى الجيران مباشرة "والأقارب البعيدين ثم توسع إلى كامل المجتمع بعد أن استطاعت الحكومة أن تجمع القرى والمقاطعات المتفرقة في كيان اجتماعي وسياسي واحد. وهذا ما سنلاحظه من خلال النصائح التي يقدمها الأب لابنه في شتى المجالات لأنها اشتملت على دراسة قيمة وخلاصة تجارب الحياة حيث ترسم لهم طريق السعادة وتضع بين أيديهم المثل العليا لكل من يريد النجاح في الدنيا والآخرة وتظم صلة الناس ببعضهم وتفتح لهم طريقا مفروشا بالنور لكي يضيء لهم حياتهم تتمثل هذه النصائح في حكم "بتاح حوتب" إن الحضارة المصرية القديمة تأسست على قيم أخلاقية وفضائل إنسانية، ومن أبرز المصادر التي نستقي من خلالها الجانب الأخلاقي هي الحكم والوصايا التى تركها اصحابها والتى تحلل أرق المشاعر وحب الأبناء والمودة الحميمة والحض على الاعتدال والبعد عن الشراهة، وهي وصايا تجمع بين الحياة العامة والتفلسف، لكنها مالت الى قدر أكبر من الواقعية واهتمامها بالسلوك العملي وضبط النفس وحسن استخدام الكلم في مواضعه. ويعد «كتاب الموتى» في الدولة الحديثة أكثر المتون تأكيداً على ضرورة النقاء الأخلاقي الذي يجب أن يتحلى به المرء لتأمين حياته الأخروية وتأكيد الإيمان باليوم الآخر وفكرة الثواب والعقاب .لقد كشفت النصوص المصرية القديمة عن مواقف أخلاقية صدرت عن ضغط اجتماعي تعبيراً عن رغبات الأفراد في إرضاء المجتمع الذي ينتمون إليه، فها هو (بتاح حوتب) يحض ابنه على فعل الطاعة من منطلق التقدير الاجتماعي: «ما أعظم فرح الإنسان الذي يقول له الناس انه ابن فضيلة كفضيلة سيد المجتمع». وهناك دافع المنفعة كمصدر للإلزام الخلقي الذي يستميل القلوب ويدفعها الى الأخلاق الطيبة ويتجسد في إحراز المرء للشهرة والشعور بلذة الزهو التى تنشأ من إعجاب الناس بفاعل الخير والفضيلة: «اعط الخبز لمن لا حقل له، وبذلك تنال اسماً طيباً يبقى الى الأبد». كما شعر الانسان المصري بالمسؤولية الأخلاقية حين جعل نفسه حاكماً على أعماله التى تصدر عنه، فهو السائل والمسؤول، لأن الانسان ذو عقل، وهذا العقل مصدر لإلزامه الخلقي ومعيار للتمييز بين الخير والشر ومناط التكليف، ومن منطلق الشعور بالمسؤولية يقف المرء أمام قضاة الآخرة ليعلن براءته من ارتكاب الآثام والشرور.

2: العدالة: ناقش الفكر المصري القديم مسألة العدالة في أكثر من نص و ذلك نظرا لأهميتها في حياتهم الاجتماعية و السياسية لقد كان العدل كان في مصر من واجبات الملك ودليل ذلك في البردية التي تضمنت نصائح الملك "حيتي الثالث (2120-2050ق.م) إلى ابنه "مريكارع" مايلي: "المملكة بكاملها على حكمك الرشيد وإنه لمل يغبط القلب أن ترى العمال مشغولين بعملهم ولكن من الخطأ أن تطلب من الشعب الكثير، فمن شأن هذا أن يجعلك غير محبوب...وسوف يمحو ذكراك ذكرى أسلافك لأم يعتمدون على محبتك، لتحكم بالعدل في بيتك، لكي يخشاك النبلاء الذين يحوزون السلطة على الأرض واحكم بالعدل على وأرفع أسى الباكين ،ولا تضطهد أرملة أو يتيما ولا تعزل القضاة من مناصبهم دون أسباب مشروعة" . ويصف "ديدرو الصقلي" حياة الملوك في مصر القديمة نقلا عن الكهنة المصريين فيقول:" فملوك مصر لا يعيشون في على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى فيعملون ما يشاءون تبعا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما: فقد رسمت القوانين حدود تصرفهم لا في الحياة العامة فحسب بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليوم. لقد تمتع المصريون بالمساواة القانونية على خلاف كثير من المجتمعات القديمة، فالقانون لم يقسم المجتمع إلى طبقات ولم يميز أبناء طبقة ما بامتيازات فقد دعا حكماءها الناس جميعا إلى عدم التميز بين القوي والضعيف أو الغني على حساب الفقير وخير شاهد على هذا إرشادات "تحوتمس الثالث" وهو يوجه وزيره "رخميرع "انظر ليس معنى أن يكون المرء وزيرا أن يكون ناعما، بل أن يكون حازما ورجلا كما يدل على ذلك اسمه ...من أجل بيت سيده، انظر لا ينبغي التحيز للعظماء ولا ينبغي استبداد كائن من كان، انظر إلى ما تعرفه كما تنظر إلى من لا تعرفه". وأمينوبي يقول "لاتكن ماكرا في ممارستك العدل، ولا تضايق الانسان الطيب."

ثالثا: أعلام من الفلسفة المصرية القديمة: خلّد الفكر المصري القديم مجموعة من الفلاسفة منهم علمين هامين هما:

أ: الحكيم بتاع حتب: وهو من المفكرين القدماء وزير الفرعون جد كارع (الشهير بـ إيزيسي) أحد ملوك الأسرة الخامسة (حوالي: 2414-2375 ق.م) وتم اكتشاف ما يقارب 43 لوحة هذه الألواح تسمى مخطوط الحكمة تضمنت هذه المخطوطة جملة من الأفكار العلمية التي وجهها لابنه ليستعد لممارسة الحكم ليشتق منها قيمتين أساسيتين القيمة الأولى هي ضرورة ضبط النفس والقيمة الثانية ضرورة الإعتماد على العقل. ومن بين هذه الحكم: "يجب أن يكون السلوك سويًا لدرجة قياسه على الشاقول"، "الظلم موجود بوفرة، ولكن الشر لا يمكن أبدًا أن ينجح على المدى الطويل"، "عاقب وفق القواعد، وإذا علّمت فليكن تعليمك ذو معنى. محاربة المساويء تؤدي إلى العشوائية"، "لا تؤدي أعمال الإنسان إلى شيء، وإنما الإرادة الإلهية هي السائرة"

ب: أخناتون: وكذلك يحتفظ الفكر المصري القديم بمساهمة أخناتون الذي قام بمجموعة من الثورات، ثورة دينية و أخلاقية عندما استبدل فكرة تعدد الآلهة بضرورة عبادة إله واحد و ثورة في مجال الفن عندما دعا إلى اعتماد النزعة الواقعية و ثورة في مجال السياسة عندما وقع أول اتفاقية سلام مع ملك من ملوك بابل. وتبدو نزعة التوحيد لدى الملك الفيلسوف واضحة والذي ظهر قبل ألف وأربعمائة قبل الميلاد: فصفات الإله عنده هي أنه واحد لا شريك له، وهو الخالق والمدبر، الوهاب الملهم الجميل ... والإله منح الحياة للكائنات، لكنها تعيش من أجله (تماثل بين الإله الأخناتوني والإسلامي)

وإجمالا نستطيع القول أن الفكر المصري القديم قد ساهم في تأسيس مجموعة من الأفكار الفلسفية ذات الصلة بمجال الوجود و مجال القيم و ركز كثيرا على الجانب العملي للحياة و ساهم في المجال العلمي كما تبين ذلك من الآثار المختلفة لهذه الحضارة.إلا أنها و في جميع الأحوال لا تشكل إلا مرحلة أوليه من مراحل الفكر الإنساني الطويل.